التهديد الشيعي» في فلسطين بين الفوبيا والبروباجاندا»

هبة الحسيني

جون فرنسوا لوجرين

باحث بالمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا

ـ هذه الدراسة هي ورقة بحثية قدمت إلى المؤتمر الدولي للعلاقات "السنية ـالشيعية"، الذي انعقد في بروكسل في الفترة من 30 ديسمبر - 2 أكتوبر 2009م

كثُر الحديث خلال الثلاثة أو الأربعة أعوام الماضية عن تزايد التهديدات الشيعية، وخاصة الإثنى عشرية، في فلسطين، وذلك رغم أن 99% من السكان يتبعون المذهب السني، بينما ينتمي البقية إلى طوائف مسيحية مختلفة.

هذه الاتهامات الصادرة عن بعض الفاعلين، سواء كانوا أفرادًا أو منظمات أو دولاً، تنبعث من دوافع مختلفة وإن كان يجمع بينهم العداء الشديد لحماس ولحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين من جانب، وحزب الله وسوريا وإيران من جانب آخر.

وقد حرصت من خلال هذه الورقة البحثية على توضيح مسألة "الفوبيا والبروباجاندا" التي يتسم بها التشيع في فلسطين. وإذا كانت الفوبيا تنبثق في غالبية الأحوال من المجال الديني والبروباجاندا من المجال السياسي، فإن الديني والسياسي يبدعان في استغلال كل طرف للآخر.

وقد ركزت هنا أيضًا على بيان أن مثل هذه الخطابات تعتمد على "نظرية مؤامرة" مشتركة، من المفترض أن تشكل فيها كل من حماس، والجهاد الإسلامي، وحزب الله، وسوريا، وإيران مجموعة واحدة يعمل كل عنصر بداخلها على خدمة المصالح الإيرانية "عدو السلام والاستقرار في الشرق الأوسط الكبير".

ويتبين من ذلك أن الجمهورية الإسلامية، ذات الأغلبية الشيعية، قد ورثت المكانة التي كان يشغلها "عراق - صدام حسين" في الخطاب الأمريكي الغربي طوال سنوات ماضية.

بالإضافة لما سبق، سيتم تناول علاقات الفلسطينيين بمختلف أطيافهم (منظمة التحرير الفلسطينية، فتح، حركة الجهاد الإسلامي، وحماس) مع حزب الله وإيران في مراحلهم التطورية المختلفة. وبحكم التخصص، سأركز على تناول هذه المسألة ليس من جانب طهران ولا دمشق ولا بيروت، ولكن من الجانب الفلسطيني فقط.

بين الفوبيا والبروباجاندا

وبعيدًا عن دفاعهم عن حقوق الفلسطينيين، بدا واضحًا أن هناك صمتًا تامًا حول التعاون المتبادل الذي يربط كلاً من حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله وسوريا وإيران، في مختلف المجالات السياسية والأيدولوجية والتنظيمية والعملياتية، حيث لم تتناول أي من الدراسات السابقة هذه الجزئية بالقدر الذي تستحقه.

ويلاحظ هنا أن البحث في هذه المسألة يعتمد على الخطب الكثيرة للفاعلين والمراقبين المعادين جذريًا لهذه السياسات التي ينعتونها "شيعية" ويتهمونها بأنها جالبة للمخاطر. ويجب هنا التفريق بين الخطب التي تنبثق من فوبيا التشيع المزروع في بيئة سنية أو "دينية تقليدية"، والخطب التي لا يمكن أن تكون إلا وسيلة للمناورة السياسية. وأخيرًا ما يمكن قوله هنا هو أن كلاً من الفوبيا الدينية والبروباجندا السياسية قد نجحت بتفوق في استخدام الواحدة للأخرى.

الفوبيا

خلال السنوات الأخيرة، اهتمت الأوساط السلفية، سواء على الصعيد الفلسطيني أو الدولي، بمسألة التشيع في فلسطين، وأعطوا له أهمية قصوى. وأصبحت المصطلحات السائدة، مثل "التشييع" و"التشيع"، تستخدم في أي سياق معادي للشيعة. كما أن مصطلحات أخرى مثل التغلغل الشيعي، الغزو الشيعي، والتبشير الشيعي، أصبحت تستخدم بكثرة مثلها مثل المشروع الصفوي الذي يشير إلى السلالة الحاكمة التي فرضت بالقوة المذهب الشيعي الإثنى عشري داخل إيران في القرن السادس عشر.

وتم إطلاق موقعين على الإنترنت يركزان بالأساس على إبراز الخطاب السلفي حول مخاطر التشيع في فلسطين. الأول هو موقع الحقيقة الذي أُنشئ عام 2006م، وأطلقته "لجنة الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة في فلسطين"، التي أعلنت أن مهمتها ستكون إظهار حقيقة المخاطر التي يشكلها الشيعة والطوائف الأخرى الضالة (مثل البعث والدروز والأحباش) على فلسطين وعلى الإسلام التقليدي بشكل عام.

أما الموقع الثاني - وهو سلفي أيضًا - فهو موقع "الراصد" الذي أُطلق عام 2003م. وفي كلتا الحالتين، لم يذكر شيئًا عن الهوية الحقيقية للمسؤولين عن هذه المواقع ولا عن انتماءاتهم الوطنية ولا الجغرافية. ويمكن القول: إن الكاتب الأكثر إسهابًا حول هذا الموضوع هو الأردني أسامة شحادة - رئيس لجنة الكلمة الطيبة بالأردن، وكتاباته متوافرة على موقعه على الإنترنت.

وهناك العديد من المواثيق المدافعة عن الدين في مواجهة المقالات الشيعية التي تنتج بكثرة على مواقع الإنترنت سابقة الذكر، حيث يطلق على الشيعة لقب "الروافض"، أي الذين يرفضون شرعية الخلفاء الثلاثة الراشدين في الأوساط السنية، وأحيانًا يطلق عليهم لقب "الكفار". وفي أغلب الأحيان، نجد أن توجه هذه المواقع يكون بالأساس سياسيًا ومرتبطًا باللحظة الراهنة دون اهتمام كبير بالترابط التاريخي.

ومن ثم أصبح الشيعة، مثلهم مثل اليهود والمسيحيين، حلفاءً للصهيونية والولايات المتحدة. كما أصبح الجهاد وحماس، بسبب اتصالاتهم بحزب الله وإيران، مجرد أدوات لتنفيذ استراتيجية التمدد الشيعي الإيراني.

البروباجاندا

برزت مسألة الخطر الشيعي بوضوح في الخطب التي يلقيها الفاعلون الدوليون. وتحت غطاء تحالف يبدو وكأنه تحالف سني، بدأ المعسكر الموالي للغرب يُعبأ ضد المعسكر المناهض لأمريكا، وينعتهم بأنه معسكر " شيعي". وعليه فقد أصبح كل من السلطة الفلسطينية في رام الله، والأردن، ومصر، والمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى إسرائيل يتبنون خطاب "التهديد الشيعي والإيراني"، وهو خطاب لا يخلو من المادة التي يمدهم بها حلفاؤهم الجدد من السلفيين.

وقد اعتبر تصريح الملك الأردني عبد الله الثاني في ديسمبر 2004م المظهر الأول لهذا الخطاب المناهض للشيعة في المرحلة الراهنة. فأثناء الانتخابات العراقية الأولى التي أجريت في فترة ما بعد صدام، حذرت السلطة الهاشمية، في "الواشنطن بوست"، حلفاءها الأمريكيين من المخاطر المرتبطة ب"قيام هلال شيعي جديد" يبدأ من البحرين وإيران ويمتد حتى لبنان. ويضم هذا الهلال الشيعي سوريا العلوية والعراق، أخذًا في الاعتبار التهديدات المزدوجة التي باتت تمثلها الدولة العراقية في الحاضر والمستقبل: فهي الدولة التي ينتمي غالبية سكانها إلى المذهب الشيعي، وفي الوقت نفسه يهرب ملايين من مواطنيها من جراء أعمال العنف ليجدوا ملاذًا لهم في الدول السنية في المنطقة.

ويمكن القول: إن استرداد حزب الله لشعبيته، بعد "نصف الانتصار" الذي حققه على إسرائيل في صيف 2006م، قد أدى إلى زيادة مخاوف المعسكر الموالي للغرب، لاسيما في ظل اتفاق الدفاع الموقع بين إيران وسوريا في يونيو 2006م، وتصاعد الطموح النووي التي لا يكف عن تأكيده دائمًا الرئيس الإيراني أحمدي نجاد.

ومنذ فوز حماس في الانتخابات التشريعية في يناير 2006م، تم ضم فلسطين ضمن هذا الهلال الشيعي. وتصاعدت التهديدات بهذا الشأن بصورة ملحة منذ صيف 2007م عندما استبقت قوات الأمن التابعة لوزارة الداخلية وقوات عز الدين القسام التابعة لحماس محاولة انقلاب مسلح كانت ستقوم بها قوات الأمن التابعة للرئاسة ولحركة فتح، وقامت بإحكام سيطرتها على قطاع غزة.

وفي الفترة الأخيرة، تبنى الرئيس مبارك نفس الخطاب الخاص بالخطر الشيعي والإيراني، وكان ذلك بمناسبة اكتشاف خلية لحزب الله في مصر في صيف 2009م تقول: إنها جاءت فقط للإشراف على إدخال السلاح إلى غزة، بينما اتهمتها السلطات المصرية بأنها كانت تعد لعملية تفجيرات في قناة السويس.

وفي جميع الأحوال يتم اعتبار إيران هي صاحب الأمر الأول، حتى فيما يخص فلسطين، فإن الحكومة السورية وحزب الله يقومان بدور الوسيط مع حماس التي تمثل الذراع العسكري لإيران على الجانب الجنوبي لإسرائيل. ووفقًا للمتبنين لهذا الخطاب، فإن هذه التهديدات يمكن أن نطلق عليها تهديدات "شيعية" و"إيرانية"، وأحيانًا الاثنين معًا. ونلاحظ أنه في بعض الأحيان يتم استخدام مصطلح "محور" لوصف العلاقات التي تجمع مختلف الفاعلين الذين يشكلون تهديدًا وخطرًا. ونذكر هنا مقالة للمحلل الاستراتيجي الأمريكي، مارك لانجفان، تحمل اسم "إيران: ألمانيا الرابعة" أو " Iran la quatrieme Reichastan"، التي عبرت بوضوح عن الرسائل الموجودة في غالبية الخطب المتعلقة بالتهديد الإيراني في الشرق الأوسط.

وبصرف النظر عن اعتباره لمحور العصيان (حماس - حزب الله - سوريا - إيران - العراق) بأنه مجموعة متباينة ومتقطعة من الحركات السياسية الإرهابية، أعلن لانجفان أن "حرب حماس/ حزب الله والفتنة العراقية يشكلان وجهين لعملة واحدة، ومصدرهم هو المحور المتزايد لألمانيا الرابعة في مواجهة أمريكا والعالم". فقد أوضح لانجفان أن إيران استخدمت سوريا تمامًا مثلما فعلت ألمانيا بإيطاليا خلال

الثلاثينيات من أجل تسهيل عملياتها الاستراتيجية خلال الثلاثينيات، وذلك لكي تتمكن ألمانيا من الهيمنة خلال الأربعينيات.

الديني والسياسي
أم الاستخدام المتبادل؟
يمكن القول: إن التمييز الذي يتم بين الفوبيا والبروباجاندا قد فُسر تفسيرًا خاطئًا إذا اعتبرنا أن "الديني" يتضامن أكثر مع خطابه عندما ينتقده "السياسي". إلا أن الحقيقة كانت أكثر تعقيدًا، حيث أثبتت التجارب الحديثة أن "الديني" و"السياسي" يستطيعان استخدام بعضهما لبعض.

وفي الفترة الأخيرة، نجد أن أعمال العنف بين أنصار فتح وحماس، التي تتذرع بالدين، قد كشفت عن تآكل الشعور بالانتماء إلى شعب واحد واحتقار الالتزامات التي تفرضها المواطنة. وبدأ يُلوَّح بدعوات للتكفير، والتكفير هنا يعني أن المسلم "غير وفي" أو "كافر"، وهو ما يجعله أمام خيارين إما الابتعاد عن هذا المجتمع الكافر عن طريق تكوين مجتمعات مناهضة وورعة، (وذلك على غرار هجرة الرسول الذي ترك مكة وهاجر للمدينة)، وإما - وهذا هو الخيار الذي يتم تبنيه هنا - إزاحة هذا الكفر بالوسائل المادية.

وتجدر الإشارة إلى أن استخدام التكفير هنا لم يأت من قبل حماس "الحركة الأصولية"، ولكنه أتى من قبل فتح "الحركة العلمانية". فقد برزت هذه الفكرة داخل الأوساط القريبة من محمد دحلان - مؤسس الأمن الوقائي في غزة، ووزير الداخلية المؤقت في السلطة الفلسطينية، وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح - بالإضافة إلى كونه أبرز المعارضين لممارسة حماس سلطتها الشعبية. ويلعب دحلان اليوم دور المتحدث الرسمي للجنرال كيث دايتون - منسق الأمن الأمريكي على الأراضي الفلسطينية - الذي يتحكم في مجمل السياسات الأمنية في رام الله.

وفي مايو 2007م، قام شيخ مغمور يدعى "شاكر الحيران" بنشر فتوى وسلسلة من الآيات على موقع "بال برس"، التابع لمحمد دحلان ولقوات الأمن الوقائي، وتم تداول هذه الآيات على مواقع الإنترنت الرسمية ومنتدى فتح، وأيضًا على الموقع الرسمي لقوات الأمن الوقائي. ووفقًا لهذه الفتوى ومجموع الآيات التي استشهد بها، فإن فتح تعطي لقوات الأمن كافة المبررات الدينية للإطاحة بحماس.

وأكد "الحيران" أن حماس واليهود هم وجهان لعملة واحدة، فهم مجموعة من المعاونين المخولين بتحقيق المصالح الإقليمية الشيعية، وهدفهم هو إبادة السلطة وتدمير الشعب الفلسطيني عن طريق تجويعه

وإخضاعه بالقوة". وقد عرف هذا الشيخ باسم "محمود الهباش"، وكان قد انشق عن حماس في منتصف التسعينيات، وهو يشغل حاليًّا منصب وزير الشؤون الاجتماعية في حكومة فياض.

علاوة على ذلك، وردت خلال الأشهر الأخيرة معلومات من غزة تفيد احتمالية أن تكون فتح قد هيمنت على بعض الجماعات السلفية الجهادية، التي تتبنى خطابًا قريبًا من خطاب القاعدة المعادي لحماس. فالمنتدى الرسمي للحركة (fatehforums.com) كان ينشر بشكل منتظم بيانات الجبهة الإسلامية العالمية للإعلام (وهي الوجهة الإعلامية لحركة بن لادن)، وذلك منذ بداية هجومهم على حماس.

وفي رام الله، تم استثمار وزير الشؤون الاجتماعية وصاحب فتوى 2007م "الحيران" من خلال قيامه بمهمة المساعي الحميدة لدى السلفيين، فعن طريقه استقبل الرئيس محمود عباس في 29 إبريل الماضي وفدًا من المنظمات السلفية الرئيسية في الضفة الغربية، أعلن خلالها عباس أنه قد ارتبط بعلاقات وثيقة مع الإمام الألباني، المرجع السلفي الممتاز، وذلك خلال رحلة نفيه الطويلة في سوريا، مؤكدًا شعوره بالتقارب بينهما في الأفكار.

المؤامرة تحت اختبار التاريخ

تبدو العلاقات التي تربط حماس والجهاد الإسلامي بحزب الله وسوريا وإيران للمؤرخ وكأنها علاقات معقدة ويعاد تنظيمها بشكل ثابت وفقًا للمرحلة والملفات المعنية.

تمدد المذهب الشيعي

دون الدخول في تفاصيل متعلقة بالدين وبمناقشات حول ما هو تقليدي وما هو ابتداعي، سيكون محور تركيزي هنا - كمؤرخ - على عناصر الخطر الموجودة. وقد حظيت مسألة التحول إلى المذهب الشيعي باهتمام مزدوج. الاهتمام الأول هو اهتمام الشيعة الذين يولون أولوية قصوى لقدرتهم على الإقناع بالعقيدة، أما الاهتمام الثاني فهو اهتمام السنة الذين يُتهمون بجلب ال"خطر". وفي كلتا الحالتين، نجد أن الحالات الفردية قد أصبحت شاهدة على وجود حركة واسعة يصعب فيها فصل الحقائق عن الأوهام.

وفي واقع الأمر، فإن تملك الأوساط الدينية - سواء السنية أو الشيعية - للإنترنت قد أدى إلى تضاعف عولمة الخطاب والممارسات، التي أصبح يغذيها أحيانًا المصادر "التقديرية". فنلاحظ مثلاً بعض المبادرات الفردية أو المحلية التي تحولت اليوم إلى حقائق عالمية.

ففي السياق الفلسطيني - على سبيل المثال - نجد أن التحول إلى المذهب الشيعي، الذي يهاجمه السلفيون كحركة جماعية، قد انخفض بنسبة كبيرة. إلا أن الحقيقة أن البعض منهم يفضل المجاهرة بهذا التحول في مقابل كثيرين يخشون من هذه المجاهرة.

ومرة أخرى تظهر التدخلات السياسية بوضوح، فالحملة التي أطلقت في أغسطس 2007م حول "المحاولات الإيرانية لتمديد العقيدة الشيعية في فلسطين"، قد خرجت من الأردن بعد وقت قليل من إحكام سيطرة الحركة الإسلامية "حماس" على غزة. وفي فبراير 2006م، أي بعد حوالي ثلاثة أشهر من التفجيرات الانتحارية التي ضربت فنادق في عمان، تم إصدار الجريدة الأسبوعية "الحقيقة الدولية" للتعبير عن الإسلام "المعتدل"، وقد اعتمدت في استسقاء معلوماتها على المواقع السنية ومختلف أنواع الصحف بما فيها الأمريكية المعادية لحماس.

علاوة على ذلك، نجد بعض مواقع الإنترنت، التي يهاجمها السلفيون على اعتبار أنها دليل على المهام الشيعية في فلسطين، تقدم نفسها على أنها مواقع فلسطينية دون وجود أي دليل على الدعم. الاستثناء الوحيد كان موقع "الجمعية الجعفرية في فلسطين"، الذي أسسه أشرف أمونة في دابورية، التي يطلق عليها "ذو الفقار". وبدأ من جديد "منتدى شيعة فلسطين" الذي خلف "منتدى نور الولاية في فلسطين" على موقع "أمة الزهراء". إلا أن "أمة الزهراء" و"أمة النور" ظهرا لفترة مؤقتة من يناير 2006م حتى فبراير 2008م مع وجود فترات توقف كثيرة، كان يجرى خلالها مناقشات على موقع الياهو تحمل اسم "شيعة فلسطين المباركة". أما موقع "التشيع في فلسطين" الصادر من النجف في العراق، فقد جعل هدفه الرئيس "نشر مذهب أهل البيت في فلسطين".

وأخيرًا، فإن الإعلان من المؤسسة في رام الله عن "مجلس أعلى إسلامي شيعي في فلسطين" في 2 مارس 2006م جاء ليثير ردود أفعال متواصلة من قبل الصحافة السلفية والصحف الدولية، التي تحدث بعضها عن فتح "سفارة أيدولوجية في إيران". إلا أن أيًا منهم لم يعلق على سحب المشروع بعد خمسة 5 أيام فقط، حيث بدا مؤسس المشروع، محمد غنيمة، وكأنه غير مستقر نفسيًا في وقت التنفيذ. ويعد غنيمة من الأعضاء القدامى في حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، إلا أنه تركها في أواخر السبعينيات ليتحول إلى المذهب الشيعي، وحرص على فتح قنوات جديدة من الدعم إلى الشعب الفلسطيني من خلال القطيعة مع سياسة منظمة التحرير التي انفصلت عن الشعب الشيعي العراقي من خلال مساندتها للعراق في حربها ضد إيران. وقد أنكر أي نية مسبقة في التعامل مع إيران، مؤكدًا أن اتصالاته مع الشيعة اللبنانيين قد جرت أثناء احتجازه داخل السجون الإسرائيلية وليس في الخارج.

ما بين الانبهار والمباعدة

كانت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين هي أولى الحركات، التي أتهمت من قبل "الإخوان المسلمون"، بأنها انعكاس للمذهب الشيعي في فلسطين، كما اتهموا قادتها أنفسهم بالتحول إلى المذهب الشيعي. والواقع أن حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين قد أُسست في أواخر السبعينيات من خلال الطلاب الغزاويين في مصر، وذلك بعد أن خذلوا من قبل الإخوان المسلمين الفلسطينيين وأُبعدوا عن أي ارتباط وطني، فجعلوا من فلسطين قلب الإسلام وحريتها واجبًا أوليًا. وكان ذلك مصحوبًا بانبهار بالثورة الإسلامية الإيرانية، حيث قام الأمين العام للحركة دكتور فتحي الشقاقي بتخصيص كتيب مسمى ب"الخميني... الحل الإسلامي والبديل". إلا أن حركة الجهاد الإسلامي ظلت حبيسة لسنوات طويلة داخل مفهومها الخاص بالطليعة الإسلامية، وأبادها القمع الإسرائيلي المباشر خلال عامي 1986 و1987م، وضعفت نتيجة الانشقاقات المتوالية.

اليوم، نجد أن حماس هي التي تمثل الذراع العسكري لإيران على الجانب الجنوبي لإسرائيل. وحتى الآن لم يظهر داخل هذه الحركة أي مؤشر يدل على قابليتها للتحول إلى دمية أو لعبة في أيدى دولة شيعية بالأساس. فقد تكونت حماس بعد قرابة عشرة أعوام من اندلاع الثورة الإسلامية في إيران، وتم اعتبارها الذراع النشط "الحي" لجماعة الإخوان المسلمين في الانتفاضة، وذلك وفقًا لأحد بياناتهم الأولية في يناير 1988م. ورغم ذلك يمكن إرجاع تاريخ حماس إلى أواخر العشرينيات من القرن الماضي عندما قام حسن البنا بإنشاء جماعته في مصر ثم قيام الجماعة بتأسيس فرع فلسطيني لها خلال الأربعينيات.

وقد اعتمدت حماس بالأساس على مجموعة مبادئ سنية ومستقرة وإلى حدٍ ما قديمة، ساعدتها في تعبئة شبكة واسعة للجماعة، وهذا الأمر يجعل من الصعب أن تكون حماس حركة "مناورة".

ومع ذلك، فإن تأسيس حماس يترجم ثورة داخلية للإخوان المسلمين الفلسطينيين، بعد تركهم لسياستهم "الطمأنينية" التقليدية والاشتراك النشط في المقاومة الوطنية. ويمكن القول: إن حماس بلا شك تدين بالفضل إلى نموذج حزب الله وإيران، والشاهد على ذلك اسمها، فحماس ليس أكثر من اختصار، فالاسم الحقيقي للحركة هو "حركة المقاومة الإسلامية"، وهي تسمية قريبة جدًا من "المقاومة الإسلامية في لبنان" التي تكونت نتيجة الانتفاضة الشعبية للشعب اللبناني ضد إسرائيل بعد أحداث جنوب لبنان 1982م.

والواقع أنه لو لم تكن هناك حركة الجهاد الإسلامي، لما كان الإخوان المسلمون في فلسطين قد وجدوا لازمًا للدخول في مجال المقاومة الوطنية. فحركة الجهاد هي التي سمحت بوجود نوع من المصالحة أو التوفيق بين الدين والوطنية على الساحة الفلسطينية منذ سنوات طويلة، وتمكنت من جذب العديد من شباب الإخوان المسلمين.

وفي مرج الزهور عام 1992م، عندما قامت إسرائيل بنفي 400 من الكوادر الإسلامية خارج أراضيهم، قامت حماس بتدشين جامعتها التي تحمل اسم "جامعة ابن تيمية" - بطل العصور الوسطى في الدفاع عن العقيدة السنية. واستطاعت حماس بذلك أن تظهر عزمها على الحماية من الشيعة وحزب الله المجاورين لها.

بالإضافة لذلك، حماس لم تنتج أي خطاب ديني مؤسسي، واعتمدت في جميع مراجعها على مراجع الإسلام السني الدولي مع العلامات البارزة المصرية (حسن البنا - سيد قطب) أو الباكستانية (أبو الأعلى المودودي)، بالإضافة إلى كبار رجال الدين في الوقت الراهن والدعاة مثل الشيخ يوسف القرضاوي. ومن وجهة نظر الفكر الديني، فإن حماس متنوعة وتضم عدة تيارات أحيانًا تكون متعارضة، حتى لو كانت ثقافة التوافق هي أساس الحركة. وحول المسألة الشيعية نذكر على سبيل المثال الشيخ نزار ريان - الذي أباده الجيش الإسرائيلي في غزة في يناير الماضي، والذي شكل وجهة دينية بارزة للمرجع السلفي الأكثر شدة وعداءً للتشيع ولإيران.

وإذا كانت حماس اليوم تقف في نفس الخندق المعادي الذي وضع فيه كل من حزب الله وإيران، فيجب أن نتذكر هنا أنه في فترات تاريخية سابقة كان ياسر عرفات نفسه هو موضع هجوم وانتقاد لارتباطه بإيران وحزب الله، لاسيما في جانب سرايا شهداء الأقصى. كما أن علم فتح قد تبنى اللون الأصفر، وهو نفس لون علم حزب الله. كما أن لجان المقاومة الشعبية في غزة قد قلدت حرفيًا نفس شعار حزب الله، ورغم ذلك لم يُتهم أي من ياسر عرفات ولا فتح بالتشيع.

تنافس الفصائل

نظرية المؤامرة، التي برزت في سياق التهديد الشيعي ومحور عدم الاستقرار، قد روجت لسلسلة من التعاون العملياتي بين إيران وسوريا وحزب الله وحماس والجهاد الإسلامي، في صورة مجموعة من الأوامر الهيراركية المتصاعدة. ولكن بعيدًا عن هذا الاقتراب الأيديولوجي، يوضح تاريخ هذا التعاون وجود نوع من التكامل والتنافس بين فصيلين، أحدهما لبناني والآخر إيراني، أما سوريا فهي تقوم بإدارة

التناقضات التي تظهر بين الفصيلين. ويذكر التاريخ الدور الذي كانت تلعبه فتح في هذه العملية، وكان دورًا بارزًا في الماضي، إلا أنه أصبح ثانويًا اليوم مع أنه ظل قائمًا رغم رفضه من قبل الزعماء الجدد للحركة، سواء محمود عباس أو محمد دحلان، الذين تم انتخابهم حديثًا في اللجنة المركزية للحركة، وجعلوا من "فتح" حجر الزاوية للنظام الأمريكي في فلسطين.

ويمكن أن نصف الفصيل اللبناني بأنه "تاريخي" على اعتبار أنه ورث التحالفات التي أقامتها منظمة التحرير خلال السبعينيات، وخاصة تلك التي أقامها ياسر عرفات وفتح مع مختلف القوى اللبنانية حتى الشيعية - وهي التي تهمنا هنا - وذلك على الرغم من الاضطرابات التي عرفتها العلاقات الشيعية الفلسطينية في لبنان.

بالنسبة للفلسطينيين، فإن أوائل المستفيدين من هذه المساعدة العملياتية، بعد الجلاء من لبنان في عام 1983م، هم أعضاء الحركة الدينية الداخلية في فتح: سرايا الجهاد الإسلامي التابعة لحمدي سلطان التميمي، وحركة الاتجاه الإسلامي المجاهد لمنير شفيق، وحركة الجهاد الإسلامي - بيت المقدس للشيخ أسعد بيوض التميمي.

وبعد قرابة خمسة عشر عامًا، ومع اندلاع الانتفاضة الثانية، نجد أن نفس المسؤولين اللبنانيين الشيعة قد ساعدوا على وضع وتشغيل بعض الخلايا في كتائب شهداء الأقصى (وخاصة في نابلس وجنين وطولكرم)، وكتائب العودة (وهي التي كانت تقوم بعملياتها في شمال الضفة الغربية).

ولكن معظم المسؤولين عن هذا التعاون المنظم، سواء داخل لبنان (التدريب في معسكرات حزب الله)، أو من لبنان (تمويل الخلايا/ تصدير السلاح) قد هلكوا خلال الهجمات. وكل هؤلاء كان قد شكلهم الفلسطينيون خلال السبعينيات: أبو حسن خضر سلامة، الذي عرف باسم "علي حسن الديب" (قتل في 16 أغسطس 1999م في صيدا)، عماد مغنية (قتل في دمشق في 12 فبراير 2008م)، وعبد الهادي حمادي، كل هؤلاء كان يطلق عليهم "الجماعة الشيعية" لفتح.

ومع أنهم لبنانيون فإنهم مارسوا مسؤوليات عليا في القوة رقم 17 التي أصبحت اليوم الحرس الرئاسي الفلسطيني. والجدير بالذكر أن علي حسين صالح (الذي قتل في 2 أغسطس 2003م جنوب بيروت)، ثم الحاج غالب العوالي (الذي قتل في 19 يوليو 2004م)، بالإضافة إلى حسن الديب، قد هلكوا جميعًا

خلال هجمات ناتجة عن شبكة مرتبطة بالموساد تم فكها في يونيو 2006م، وحل محلهم الإمام عماد مغنية، الذي قتل في دمشق في هجوم لم يتعرف حتى الآن على مرتكبيه.

هذه الشبكات التاريخية اللبنانية لفتح لا تزال حتى اليوم تمد بالمساعدات كتائب شهداء الأقصى، وهي مجموعات الشهيد عماد مغنية التي يقودها سليم ثابت، وهو أصله من طولكرم ومقيم في غزة. وقد قام ثابت بتجميع مختلف خلايا كتائب شهداء الأقصى تحت إمرته، التي قد قررت، بعد سيطرة حماس على الأمن في قطاع غزة يونيو 2007م، استكمال المقاومة ضد إسرائيل بالتوافق مع السلطة الفلسطينية الموجودة، ولكن مع قطع الصلات بالسلطة في رام الله.

أما الفصيل الإيراني فهو أكثر حداثة، لكنه أقل أيدولوجية من الفصيل اللبناني فيما يتعلق بالتبشير الشيعي. وترجع نشأته إلى السنوات الأولى للجمهورية الإسلامية، فعندما قامت هذه الأخيرة بقطع علاقاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية التابعة لياسر عرفات بعد قراره الدخول في طريق المفاوضات مع إسرائيل، كان الفرس هم المخولين بالاتصال بلبنان وفلسطين ومحسن رفيق دست، الذي سبق أن اشترك في تدريب كوادر من منظمة التحرير في لبنان، التي كان عماد مغنية في ذلك الوقت قائدًا فيها. ويذكر أن حركة الجهاد الإسلامي كانت من أوائل الفلسطينيين المستفيدين من هذا التعاون السياسي والمالي والعملياتي.

وخلال السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات، لم تشكل حركة الجهاد إلا أحد عناصر حركات الجهاد الفلسطيني إلى جانب الجماعات المنبثقة من فتح التي استفادت من مساعدة الفصيل اللبناني. فالعلاقات التي أقامتها حركة الجهاد مع هذه الجماعات، التي كانت في الوقت نفسه علاقات صداقة وتنافس، كانت أحيانًا علاقات عاصفة رغم التعاون بينهم، وكانت مصحوبة أحيانًا بغيرة تولدت نتيجة انتقال بعض الكوادر العسكرية والسياسية من جماعة إلى أخرى.

ولكن في بداية التسعينيات، شكلت نشأة "حزب الله - فلسطين" أول مظاهر تنوع المساعدة العسكرية التي تحملها إيران وحزب الله اللبناني للمجاهدين الفلسطينيين. وهذا التنوع قد تسبب في إشاعة المشاكل بين المنظمات الفلسطينية المتصلة، سواء بالفصيل اللبناني أو الفصيل الإيراني.

مؤسس حزب الله فلسطين، أحمد مهنا، كان ضابطًا قديمًا في قوات التحرير الشعبية، وهي وحدة في جيش التحرير الفلسطيني أسست بعد عام 1967م من أجل مقاومة المحتل الجديد من الأراضي نفسها، وكان ذلك سببًا في أن يظل محبوسًا داخل السجون الإسرائيلية حتى عام 1985م.

اختلط مهنا في البداية بفتحي شقاقي - المبعد مثله خارج فلسطين في عام 1988م - ولكنه كان من أكثر المتحمسين لعسكرة المقاومة، ومن ثم انضم إلى الجهاد الإسلامي - بيت المقدس، التابعة للشيخ أسعد التميمي. ونظم مهنا هجوم الإسماعيلية في فبراير 1990م الذي استهدف حافلة إسرائيلية، إلا أنه طرد بعد ذلك من صفوف بيت المقدس.

ومن هنا بدأ مهنا يتعامل تحت اسم "حزب الله فلسطين"، مؤكدًا تكوين تنظيم عسكري يضم عددًا من المحاربين الموجودين في جنوب سوريا ولبنان، مستفيدة بالمساعدة التي قدمتها الخلية اللبنانية. واحتجت حركة الجهاد على هذه المساعدة إلا أنها لم تحصل على ردٍّ مرضٍ، وكان ذلك دافعًا لها لتطوير جناحها العسكري الخاص تحت اسم "القوى الإسلامية المجاهدة" (القسام)، التي أصبحت بعد ذلك سرايا القدس.

تجربة "حزب الله - فلسطين" لم تسمح فقط للفصائل اللبنانية والإيرانية بإيجاد مجال للتوافق والتفاهم، ولكنها أتاحت فرصة لتوسيع تعاونهم مع العالم الإسلامي الفلسطيني، بعيدًا عن صفوف حركة الجهاد. وفي الواقع، فإن مساعد أحمد مهنا، وهو عدنان الغول لاجئ من معسكر شاتي في غزة، قد انضم مبكرًا إلى جماعة الإخوان المسلمين. ولكن بعد تحولها إلى المقاومة المسلحة لتحرير فلسطين، تم إبعاد الغول، وبدأ يخالط مجموعات مختلفة من حركة الجهاد قبل أن يصبح رقم 2 في "حزب الله - فلسطين".

وانضم الغول مرة ثانية إلى حركته الأصلية "حماس" في عام 1992م، وأصبح مساعد محمد ضيف - رئيس كتائب عز الدين القسام. وبفضل عدنان الغول، استفادت حماس من شبكات الفصيل اللبناني. وفي الوقت نفسه، كانت هناك اتصالات قائمة مع الفصيل الإيراني تم تأسيسها من خلال إقامة "المؤتمر الأول للدفاع عن الثورة الإسلامية الفلسطينية" في طهران أكتوبر 1991م.

الخلاصة

في إطار اختبار مختلف الهواجس التي أثيرت حول خطب التهديد الشيعي في فلسطين، بدا واضحًا أن هذه الهواجس هي بالأساس أيدولوجية وقائمة على مصالح دينية وسياسية. ففي المجال الديني، يمكن القول: إن قدرة هذه الخطب على تعبئة الجماهير السنية يعكس قطع الصلة تمامًا مع مرحلة الإسلام

الحديث، الذي كان يدعو إلى التقارب بين السنة والشيعة، وكان يشجعه الأزهر والإخوان المسلمون. أما في المجال السياسي، فإن هذه الخطب تعتبر أكبر شاهد على فتح صفحة جديدة يكون فيها السلفيون - بكل خضوع - هم الحلفاء الجدد للنظم العلمانية، وذلك في مقاومتهم للإسلاميين، وبالأخص الإخوان المسلمين، المعارضة الحقيقية التي تحظى بشعبية.

باحثة بوكالة أنباء الشرق الأوسط

Source : http://www.al-qudsonline.com/qudsreport/Article.asp?year=2006&NumeralID=93&ArticleID=1222